10

سيرة الرسول ﷺ

لكل الأعمار

فتح مكة

وحجة الوداع

الأستاذ الدكتور

أحمد عمر هاشم

رئيس مجلس الإدارة

عـادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

حسام حسين

مستشار النشر

أحمد جمال الدين

رقم الإيداع

٩١٤٢ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولى

٩٧٧ - ٣٩٩ - ٠٩٥ - ٧

الطبعة الثانية

الجمع والإخراج الفنى
«مكتبة ابن سينا»

ت : ٦٣٧٩٨٦٣ ف : ٦٣٨٠٤٨٣

مطابع العبور الحديثة

الكتاب : سيرة الرسول ﷺ لكل الأعمار

المؤلف : أ . د. أحمد عمر هاشم

الغلاف : إبراهيم محمد إبراهيم

الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة

E-mail:atlas@innovations-co.com

تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠

فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

• • • •

تطلب جميع مطبوعاتنا من

وكيلنا الوحيد بالمملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص . ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٢٣ - هاتف ٤٢٥٣٣٦٨ - ٤٢٥١٩٦٦

فاكس : ٤٢٥٥٩٤٥ جدة - تليفون وفاكس : ٦٢٩٤٣٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٤].

مقدمة

ها نحنُ نقلّبُ في صفحات السيرة النبوية العطرة، ونصلُ إلى الأعوام الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ والتي شهدتْ إتمامَ الرسالة وتبليغَ الدعوة، وبسطَ نفوذ الدولة الإسلامية في أنحاء الجزيرة العربية بعدَ أن أنعمَ اللهُ علَى رسوله وعلَى المسلمينَ بالفتح المبين، فتح مكةَ.

وقبلَ أن نطالعَ الصفحات الأخيرةَ من (سيرة الرسول) نذكّرُ بالهدف من هذه السيرة، وهوَ أنَّها تُعطي صورةً واضحةً للحياة الإسلامية متمثلةً في أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ الذي أمرَنا اللهُ تعالَى أن نقتديَ به في قوله جلَّ شأنُه :

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنهَا صورةُ النموذج الحيّ لتطبيق تعاليم الإسلام في كلّ مناحي الحياة، صورةُ القدوة التي نتّبعُها في

حياتنا، فتطمئنُّ بِهَا قلوبُنا، وتترقَّى بِهَا أرواحُنا في مدارج اليقين، ومعارج الإيمان بربّ العالمينَ.

الرسالة العالمية

لقد أرسل الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ورسولا إلى الناس أجمعين، بالرسالة العامة الخالدة، وختم به جميع رسله وأنبيائه، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

[الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنةٍ في زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، ويَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَة؟ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وأَنَا خَاتَمُ النَّبِيينَ» [مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ].

ومعلوم أن دعوة الأنبياء جميعا واحدة فيما يتصل بجانب العقيدة؛ لأنهم جميعا، يدعون إلى عبادة إلهٍ واحدٍ، لا شريك له. فجميع الرسل والأنبياء،

يدعون إلى توحيد الله تعالى، وتنزيهه عما لا يليق بذاته العلية، وكل الأنبياء يتفقون في العقيدة من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وكانوا جميعًا يسيرون وفق بعثة الله لهم، ووحيه، فيصدق اللاحق منهم السابق، ويبشر السابق ببعثة اللاحق.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وإذا كانت دعوات الرسل السابقين حتى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ كلها قد اتحدت واتفقت، في جانب العقيدة.. فإنها بالنسبة إلى جانب التشريع وبيان الأحكام، قد اختلفت، كَمًّا وكيفًا، ما بين كل نبيٍّ وآخر، فقد أنزل الله مع كل نبي ما يناسب قومه من الأحكام، وما يصلح لهم. فإن التشريع يستهدف صالح الدنيا والآخرة، وللتطور واختلاف الأمم والشعوب وتغيير الحياة أكبر الأثر.. فلا بد أن تتوخَّى كل شريعة ما يوائم أمتها وما يتفق مع زمنها

وأهلها.

وكانت كل شريعة تنسخ ما قبلها إلاَّ إذا ورد تأييد من الشريعة المتأخرة لبعض ما في السابقة، أو أن يسكت التشريع اللاحق.

هذا فيما يتصل بجانب التشريعات أما العقيدة فهي واحدة وأما الدين فواحد لا اختلاف فيه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وكانت الشرائع السابقة خاصة في الزمان وفي المكان، حيث كانت الحياة البشرية تتقلب في أطوار مختلفة حتى إذا ما بلغت الرشد العقلي، ونمت واكتملت قضت حكمة العزيز الحكيم أن يرل رسوله محمدًا ﷺ بالشريعة العامة التامة الثابتة الخالدة، فجاءت الشريعة الخاتمة عامة في الزمان والمكان، شاملة للإنس والجن والعرب والعجم والأحمر والأسود، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فعموم الرسالة من خصوصيات رسول الله ﷺ وليس لأحد من الرسل السابقين عموم في رسالته وهذا العموم لرسالة سيدنا مُحَمَّد ﷺ كان في أصل بعثته ومن مبدئها وأولها.

وثبت في رواية الإمام مُسْلم: «وبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَد».. والمراد بالأحمر: العجم، وبالأسود: العرب، وقيل: الأحمر الإنس، والأسود الجن.. وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند الإمام مُسْلِم ما هو أصرح من ذلك في الدلالة على عموم الرسالة إلى جميع الخلق: وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وأما خلود رسالته ﷺ، فقد تكفَّل ربُّ العزة سبحانه وتعالى بحفظها وحفظ دستورها السماوي وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد ختم الله تعالى به جميع الأنبياء والمرسلين؛ فلا نبي بعده ولا رسالة بعد رسالته، قال ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ لا نبيَّ بَعْدِي وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ».

ولأن النبي ﷺ بُعِثَ إلى العالم أجمع، لذا كان عليه أن يخرج بدعوة الإسلام خارج الجزيرة العربية، ويبلغ الرسالة إلى الأمم المجاورة كالفرس والروم والحبشة وغيرها. لأنه لم يرسل إلى العرب فقط. بل إلى العرب والعجم.

وقد كان من مزايا صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع قريش أنه أعطاه الفرصة والوقت ليدعو الناس إلى الإسلام ، وتبدأ مرحلة جديدة ، ومن هنا كانت كتب الرسول ﷺ إلى ملوك الدول المجاورة للجزيرة العربية.

كُتب الرسول ﷺ إلى الملوك ودعوتهم إلى الإسلام

أعطت الهدنةُ التي نصَّ عليهَا صلحُ الحديبية بينَ المسلمينَ والمشركينَ فرصةً للمسلمينَ ليبدأوا مرحلةً جديدةً من مراحل الدعوة الإسلامية، والخروجَ بِهَا من الجزيرة العربية إلى كلّ العالمينَ؛ فالإسلامُ دينٌ عالميٌّ، ودعوتُه للناس كافةً، ورسولُه رحمةٌ للعالمينَ.

ومن أجل هذَا أرسلَ رسولُ الله ﷺ في المحرَّم منَ السنة السابعة البعوثَ والرسائلَ للملوك والرؤساء يدعُوهم فيهَا إلى الإسلام، وعندَما أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يرسلَ الرسلَ إلى الملوك، ليدعوَهم إلى الإسلام قيلَ له: يا رسولَ الله، إنَّ الملوكَ لا يقرأونَ كتابًا إلا مختومًا.

فاتَّخذَ رسولُ الله خاتمًا من فضةٍ، نَقْشُهُ ثلاثةُ

أسطر: (محمدٌ) في سطر، و(رسول) في سطر، ولفظُ الجلالة (الله) في سطر، وختَمَ به الكتب.

فأرسلَ الرسولُ ﷺ رسالةً إلى قَيْصَر الروم، حملَها دحْيَةُ بنُ خليفةَ الكلبيُّ، وكانَ نصُّها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من مُحمدٍ عبدِ اللهِ ورَسُولِهِ إلى هرَقْلَ عظيم الروم.

سلامٌ علَى من اتَّبَعَ الهُدَى.. أما بعد..

فإنِّي أدعُوكَ بدعاية الإسلام، أسلِمْ تسلمْ يؤتكَ اللهُ أجرَك مرَّتين، فإنْ توليتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيينَ، و﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤][1].

وكانَ ردُّ هرقلَ علَى الكتاب ردًّا حسنًا، وقدْ أجازَ

(١) جمهرة رسالة العرب، جـ١، ص ٣٨.

دحيةَ حاملَ كتاب الرسول ﷺ جمالاً وكسوةً.

* وكتبَ رسولُ الله ﷺ كتابًا إلى النجاشيّ مَلك الحبشة حمَلَهُ عمرو بنَ أميَّة الضَّمْري، فأخَذَ النجاشيُّ كتابَ رسول الله ﷺ فَوَضَعَهُ على عينيه ونزلَ من سَريره على الأرضْ تواضعًا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق.

* وبعثَ رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ حُذافةَ السَّهميَّ إلَى كسرَى يدعُوه إلَى الإسلام، وكتبَ معهُ كتابًا، فلمَّا قرئ الكتابُ علَى كسرَى أخذَه ومزَّقه.. فلمَّا بَلَغَ ذلكَ رسولَ الله ﷺ قالَ: «اللهمَّ مزّق مُلْكَه».

* وبعثَ رسولُ الله ﷺ حاطبَ بنَ أبي بَلْتَعةَ اللُّخْميَّ إلى المُقَوْقَس صاحب الإسكندرية عظيم القبْط يدعُوه إلى الإسلام، فردَّ المقوقسُ علَى الرسالة ردًّا حسنًا، وأرسلَ مع حاطب هدايَا إلى رسول الله ﷺ، من بينها ماريَّة التي أصبحتْ من أمهات المؤمنينَ وأنجبتْ إبراهيمَ ابنَ رسول الله ﷺ.

* وكتبَ رسولُ الله ﷺ رسائلَ إلى المنذر بن ساوَى

حاكم البحرَيْن، وهَوْذَة بن عليّ صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمَّر الغسَّانيّ صاحب جمَشْق، وإلَى ملك عُمَان جَيْفَر وأخيه عياذ ابنيّ الجُلنْدي.

هذه بعضُ الكتب التي بعثَ بِهَا رسولُ الله ﷺ إلى الملوك يدعُوهُم فيهَا ويدعُو قومَهُم وأتباعَهم إلى الإسلام، مشيرًا إلى مبادئ الإسلام، وكان ﷺ سَمْحًا وعظيمًا في دعوته وأسلوبه، متبعًا المنهج الربَّانيَّ الذي أمرَهُ ربُّ العزة - سبحانَه وتعالَى - فيه بالدعوة حين قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فكانَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - يخاطبهُم بأسلوبه الرقيق الحكيم لا عُنْف في دعوته ولا تهديد، بَلِ الأدبُ العالي والذّوقُ الرفيعُ. وصدقَ اللهُ إذْ يقولُ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

غزوَةُ خَيْبَر[1]

كانت خَيْبَر الحصنَ المنيعَ لليهود ، ومركزَ أحقادهم، ووكرَ الدسّ والتآمر ضدَّ المسلمينَ، وكانَ أهلُ خيبر همُ الذينَ حزَّبُوا الأحزابَ ضدَّ المسلمينَ، وتعاونُوا معَ المنافقينَ في بثّ الشائعات والأراجيف في المدينة، وحرَّضُوا يهودَ بني قريظة على الغدر والخيانة، وقدْ وضَعُوا خُطَّةً لاغتيال الرسول ﷺ في أكثر من محاولة باءتْ كلُّها بالفشل بفضل الله، فكان لا بدّ من مهاجمة هذَا الوَكْر، والقضاء عَلَى ما فيه من أفاع، والسيطرة عليه وتأمين جانبه؛ فخرجَ رسولُ الله ﷺ في أواخر المحرم من السنة السابعة للهجرة إلى غزو خيبر، ولمْ يخرُجْ معهُ إلا أصحابُ بيعة

(١) خيبر : مدينة كبيرة على بعد ثمانين ميلًا شمال المدينة المنورة .

الرضوان في يوم الحديبية، وكانَ عددُهم ألفًا وأربعَمائة، فسارَ بهم رسولُ الله ﷺ إلى خيبر حتى وصلُوا قريبًا منهَا ولم يشعرْ بهمُ اليهودُ، وقالَ رسولُ الله ﷺ: لأعطينَّ الرايةَ غدًا رجلًا يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه، فلمَّا أصبحَ الناسُ غَدَوْا عَلَى رسول الله ﷺ كلُّهم يرجُو أن يُعطَاهَا.

فقالَ رسولُ الله: أينَ عليُّ بنُ أبي طالب؟ فقالُوا: يا رسولَ الله هوَ يشتكي عينيْه. قالَ: فأرسلوا إليه، فأتيَ به، فبصقَ رسولُ الله ﷺ في عينيْه ودعَا له فَبَرئ، كأنْ لمْ يكُن به وجعٌ، فأعطاهُ الرّايةَ.

خرجَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقودُ المسلمينَ إلَى حصْن (ناعم)، وهوَ أقوَى حصن في خيبر، فدعَا اليهودَ إلَى الإسلام، فرفَضُوا الدعوَة وبرزُوا إلى المسلمينَ ومعهُم ملكُهم (مَرْحَب)، ودارَ قتالٌ مريرٌ حولَ الحصن بدأ بمبارزة، قُتل فيها ملك اليهود مرحبٌ، وما لبثَ أن انهارتْ مقاومةُ اليهود، وعجزُوا عنْ صَدّ هجوم المسلمينَ، فبدأوا يتسلَّلونَ

من حصن ناعم إلى حصن (الصَّعب)، واقتحمَ المسلمونَ حصن ناعم.. ونصرَ اللهُ جُندَه، وتهاوتْ حُصونُ خيبر في أيدي المسلمينَ حصْنًا حصنًا.

وأيقنَ اليهودُ بالهَلَكَة، فسألُوا رسولَ الله الصُّلحَ فصالَحَهم- صلواتُ الله وسلامُه عليه- علَى أن يخرُجوا من خيبر بذراريهم، وتمَّ تسليمُ الحصون للمسلمين. وبذلكَ تَمَّ فَتْحُ خيبر.

وعَقبَ غزوة خيبر تزوَّجَ رسولُ الله ﷺ صفيَّةَ بنتَ حُيَيّ بن أخْطَبَ سيد بني قُرَيْظَةَ، فقدْ وقعتْ في السَّبي، فأخذَها رسولُ الله ﷺ فعرضَ عليهَا الإسلامَ فأسلمتْ، وخيَّرَها بين أن يردَّها إلى أهلها أو تبقَى معَه ويتزوجَها، فاختارتْ أن تبقَى معَهُ، فأعتَقَها ﷺ وتزوَّجَها.

عمرةُ القضاء

خرجَ رسولُ الله ﷺ في شهر ذي القعدة من السنة السابعة متجهًا إلى مكةَ المكرمة لأداء العمرة علَى ما عاهَدَ عليه قريشًا في الحُدَيْبِيَة. . ودخلَ مكةَ وأدَّى العمرةَ، وخرجَ المشركونَ إلى جبل قُعَيْقعَان ليَرَوا المسلمينَ، وهم يطوفونَ، وكأنَّهم يحبونَ أن ينظُروا إلى ضعفهم، وفي نفوسهم أحقادٌ علَيْهم، فأمرَ الرسولُ ﷺ المسلمينَ عندَ طوافهم بالرَّمَل، وهوَ نوعٌ من الهَرْوَلَة والسُّرعة في المشْي، بينَ الجَرْي والمشْي السريع معَ هزّ الكتفَين؛ حتى يرَى أعداؤهم من المشركينَ أنَّهُم أقوياءُ وليسُوا ضعفاءَ؛ لأنَّ المشركينَ كانُوا يُشيعونَ عن المهاجرينَ أنَّهم قد أضعفَتْهُم الأمراضُ، ووهَنَتْهم حُمَّى يثربَ.

ورَمَلَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ ثلاثةَ أشواط، فلما رآهُم المشركونَ قالُوا:

- هؤلاء الذينَ زعمتُم أنَّ الحمَّى قدْ وَهَنَتْهم، هؤلاء أجلَدُ من كذَا وكذَا[1].

(١) صحيح مسلم ١ / ٤١٢.

غزوةُ مُؤْتَة

أرسلَ رسولُ الله ﷺ برسالة إلى أمير (بُصْرَى) يدعوهُ إلَى الإسلام، وحملَ الرسالةَ الحارثُ بنُ عُمَيْر الأزديُّ، فعرضَ لَه في الطريق شُرحبيلُ الغسَّانيُّ - أحدُ عمال الروم بالشام - فقتلَه، فاشتدَّ ذلكَ علَى رسول الله ﷺ فجهَّز جيشًا قوامُه ثلاثةُ آلاف مقاتل للمسير إلى الشام، وأمَّرَ علَى الجيش في هذه الغزوة زيدَ بنَ حارثةَ وقالَ: «إن أصيبَ زيدٌ فجعفرُ بنُ أبي طالب، وإن أصيبَ جعفرٌ فعبدُ الله ابنُ رَوَاحَةَ».

وودَّعَ رسولُ الله ﷺ الجيشَ داعيًا لهُم وناصحًا: «اغزُوا باسم الله، قاتلُوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشام، وستجدونَ فيهَا رجالاً في الصوامع معتزلينَ فلا تتعرَّضُوا لهُم، ولا تقتلُوا امرأةً ولا شيخًا فانيًا ولا تقطَعُوا شجرًا ولا تهدمُوا بناءً».

وسارَ الجيشُ الإسلاميُّ نحوَ الشام في أوَّل

مواجهة عسكرية بينَ المسلمينَ والروم، ولمَّا وصلُوا إلى أرض (البلقاء) بالشام خرجَ لهُم هرَقلُ ملكُ الروم في مائة ألف من الروم، ومائة ألف أخرَى من نصارَى العرب.

وصارَ المسلمونَ في قرية (مؤتة) من أرض البلقاء.

واقتتلَ الفريقان قتالاً عنيفًا في معركة غير متكافئة من حيثُ العددُ، ولكنَّ المسلمينَ تسلّحُوا بسلاح الإيمان بالله وطلب الشهادة في سبيله، مما أذهلَ عدوَّهم وجعلَهُم يشعرونَ أنهُم يقاتلونَ جيشًا ضخمًا وليسَ ثلاثةَ آلاف مقاتل في مواجهة مائتي ألف.

واستُشهد الأميرُ الأوَّلُ زيدُ بنُ حارثةَ، فأخذَ الرايةَ جعفرُ بنُ أبي طالب حتَّى قُطعتْ يمينُه، فأخذَ الرايةَ بيساره فقُطعتْ، فاحتضنَ الرايةَ حتَّى قُتل- رضي اللهُ عنهُ - فكانَ جزاءُ جعفر عندَ ربّه سبحانه أن أبدَلَهُ الله بيديْه جَناحين يطيرُ بهمَا في الجنة حيثُ شاءَ.

ثم أخذ الرايةَ بعدَه عبدُ الله بنُ رواحةَ فاستُشهدَ، فأخذَ الرايةَ ثابتُ بنُ أقرم أخُو بني العجلان، وقالَ:

يا معشرَ المسلمينَ اصطلحُوا على رجل منكُم. فقالُوا: أنتَ. قالَ: لا. ثمَّ دفعَ الرايةَ إلى خالد بن الوليد، وقال له: أنتَ أعلمُ بالقتال منّي.

فأخذَها خالدٌ ونفَّذ خُطَّة ذكيَّةً لإنقاذ الموقف، فانحازَ بالمسلمينَ، وعندمَا أقبلَ الليلُ انتهزَ خالدٌ الفرصةَ وغيَّر نظامَ الجيش، فجعلَ المقدّمةَ ساقةً، والساقةَ مقدمةً، والميمنةَ ميسرةً، والميسَرةَ ميمنةً، وصفّ صفًّا طويلاً وراءَ الجيش، فلما أصبحُوا أنكرت الرومُ ما كانُوا يعرفونَ من راياتهم وهيئَتهم وسمعُوا الصيحات وأصوات الأسلحة، فظنُّوا أنَّ المسلمينَ جاءَهم مَدَدٌ، فأصابَهُم الرعبُ، وخافَ الرومُ أن يُستدرَجُوا إلى الصحراء فبدأوا في الانسحاب.

وانسحبَ المسلمونَ كذلكَ، وهكَذا انتهت المعركةُ دونَ تحقيق نصر حاسم لأحد الفريقَيْن على الآخر، غيرَ أنَّ المسلمينَ قد قتَلُوا منهمُ الكثيرَ، وإنْ كانَ القادةُ الثلاثةُ قد نالُوا الشهادةَ، وأثبتُوا جدارتَهم الحربيةَ، وصدقَهم في الإيمان والعهد.

وعلمَ رسولُ الله ﷺ بوحي من ربِّه بما جرَى فقامَ علَى المنبر فقالَ: «أخذَ الرايةَ زيدٌ فأصيبَ، ثم أخذَها جعفرٌ فأصيبَ، ثم أخذَها ابنُ رواحةَ فأصيبَ، حتَّى أخذ الرايةَ سيفٌ من سيوف الله حتَّى فتحَ اللهُ عليهم».

فتحُ مكةَ

قريشٌ تنقضُ عهدَها

كانَ منْ بنود صُلح الحديبية أنَّه مَن شاءَ دخلَ في عقد قريش، ومنْ شاءَ دخلَ في عهد رسول الله ﷺ، فدخلَتْ خزاعة - في عقد محمد وعهده، ودخلتْ بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، وبعدَ مدة وثبَ بنو بكر- حلفاءُ قريش- علَى خزاعة - حلفاء الرسول ﷺ - على غفلة منهُم ودونَ سبب، وساعدَت قريشٌ حلفاءَها، وكانتْ الموقعةُ عند ماء لخزاعةَ يسمَّى «الوتير»، فأسرعَ عمرُو بن سالم الخزاعيُّ، وذهبَ وأخبرَ رسولَ الله ﷺ بمَا حدثَ وأنشدَ قصيدةً جاءَ فيهَا :

هُـمْ بيّـتـونـا بـالـوتـيـر هُـجَّـدًا

وقَـتَّـلـونـا ركَّـعًـا وسـجَّـدًا

فقالَ لهُ رسولُ الله ﷺ : «نُصرْتَ يا عمرُو» .

وحاولَ أبو سفيانَ أنْ يجدّدَ العهدَ الذي نقضتْهُ قريشٌ فلمْ يجدْ عَونًا على ذلكَ.

وأمرَ رسولُ الله ﷺ بالتجهُّز للمسير إلى مكةَ، وأمرَهم بكتمان الأمر حتَّى لا يعرفَ الخبرَ، فأرسلَ حاطبَ بنَ أبي بلتَعَةَ إلى قريش كتابًا يخبرُهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ودفعَهُ إلى امرأة لتوصّلَه إليهم، فوضعت الكتابَ في شعر رأسها، وخرجتْ، فأوحَى اللهُ تعالَى إلَى رسوله بِمَا صنعَ حاطبٌ، فبعثَ عليَّ بنَ أبي طالب والزبيرَ بن العوام في طلبها.

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ: انطلقنا تَعَادَى بنَا خيلُنا، حتَّى انتهَيْنا إلى الرَّوضة، فإذَا نحنُ بالظَّعينة، فقلنا: أخرجي الكتابَ. فقالتْ ما معي كتابٌ. فقلنَا لتُخرجنَّ الكتابَ أو لنُلْقيَنَّ الثيابَ، فأخرَجَتْه من عقاصها[1]، فأتينَا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعةَ إلى أناس من المشركينَ من أهل

(١) ضفيرة الشَّعر..

مكةَ يخبرهُم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقالَ ﷺ :

- يا حاطبُ ما هذَا ؟

قالَ :

- يا رسولَ الله ، لا تعجلْ عليَّ، إنّي كنتُ امرءًا مُلْصَقًا[1] في قريش، ولمْ أكُن من أنفُسها، وكان مَن معَكَ من المهاجرينَ لَهُم قَراباتٌ بمكة، يحمُونَ بِهَا أهلَهم وأموالَهم، فأحببتُ إذْ فاتني ذلكَ من النسب فيهم أن أتَّخذَ عندَهم يدًا يحمُونَ بها قرابَتي، ولمْ أفعلْهُ كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضاءَ بالكفر بعدَ الإسلام.

فقالَ رسولُ الله ﷺ : «قد صدَقَكُم».

فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنُه : يا رسولَ الله دَعْني أضربْ عُنُقَ هذَا المنافق.

فقالَ رسولُ الله ﷺ : إنهُ قَد شهدَ بدرًا. وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ يكونُ قد اطَّلَعَ علَى مَن شَهَدَ بدرًا فقال اعمَلُوا ما شئتُمْ فقَدْ غفرتُ لكُم.

وليسَ في قوله ﷺ : «اعمَلُوا ما شئتُم..» إغراءٌ

(١) أي أنني لست من قريش .. ولكنني نازلٌ فيهم .

بالتجاوُز وفعْل المعاصي، فإنَّ رسولَ الله ﷺ لا يأمرُ إلا بمعروف، ولا ينهَى إلا عن المُنكَر، وإنَّما هذَا القولُ محمولٌ على الغُفران في الآخرة.

الطريقُ إلى مكةَ

توجَّه رسولُ الله ﷺ بعشرة آلاف مسلم نحوَ مكةَ، يومَ الأربعاء العاشرَ من رمضانَ سنةَ ٨ هـ، ووصلَ الجيشُ «مُرَّ الظَّهران» بالقرب من مكةَ، وعسكَرَ الجيشُ هناكَ.

ولقد أجارَ العباسُ أبا سفيانَ بنَ حرب وأردَفَه خلْفَه علَى بغلة رسول الله ﷺ، وعندمَا نزلا لحقَ بهمَا عمر- رضيَ اللهُ عنهما- فقالَ:

- يا رسولَ الله، هذَا عدوُّ الله قد أمكنَنا اللهُ منهُ من غير حرب ولا حلف بيننا وبينه ولا عهد.

فقالَ العباسُ:

- يا رسولَ الله، إنَّه في جواري.

فقالَ رسولُ الله ﷺ:

- هوَ في جوارك فاذهبْ به إلى رَحْلك فإذَا أصبحتَ فأتني به.

فذهبَ به العباسُ إلى رحله، وفي الصباح ذهبَ به

إلَى رسول الله ﷺ فقالَ لهُ :

– وَيْحَكَ يا أبَا سفيانَ ، أما آنَ لكَ أن تعلمَ أنَّه لا إله إلا اللهُ؟

فقالَ أبو سفيانَ :

– بأبي أنتَ وأمّي، ما أحلمَكَ وأكرمَكَ وأوصلَكَ، والله لقدْ ظننْتُ أنْ لَوْ كانَ معَ الله غيرُه لقد أغنَى عَنّي شيئًا بعدُ[1].

وأسلمَ أبو سفيانَ ونطَقَ بالشهادتين. فقالَ العباسُ :

– يا رسولَ الله ، إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرَ فاجعلْ لهُ مِنَ الأمر شيئًا.

فقالَ رسولُ الله ﷺ :

– من دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهوَ آمنٌ ومَنْ دخلَ المسجدَ الحرامَ فهو آمنٌ، ومَنْ أغلقَ بابَ داره عليه فهوَ آمنٌ.

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، جـ٣ ص ٥٤٨ .

يومُ الفتح الأكبرُ

كانَ ذلكَ اليومُ هوَ يومَ الأربعاء السابعَ عشرَ من رمضانَ سنةَ ٨ هـ.

في صباح ذلكَ اليوم دخلَ الرسولُ - صلوات الله وسلامُه عليه - مكةَ وهو مطأطئُ الرَّأس تواضعًا لله تعالَى، ومحذّرًا من إراقة الدماء، وعندَما سمعَ سعدَ بن عُبَادة يقولُ :

- اليوم يومُ الملحمة . . . اليومَ تُسْتَحَلُّ الحُرْمَةُ .

قالَ ﷺ :

- إنهُ يومُ المرحَمة ، وليسَ يومَ الملحمة .

ثمَّ نهضَ رسولُ الله ﷺ والمهاجرونَ والأنصارُ بينَ يديْه وخلفَه وحولَه، حتَّى دخلَ المسجدَ الحرامَ، فأقبلَ إلى الحَجَر الأسود، فاستلَمه، ثمَّ طافَ بالبيت، وفي يده قوسٌ، وحولَ البيت، وعليه ثلاثُمائة وستونَ صنمًا، فجعلَ يطعنُها بالقوس

ويقولُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] .. والأصنامُ تتساقطُ على وجوهها[1].

ثمَّ دخلَ ﷺ المسجدَ الحرامَ فأزالَ ما به من تماثيلَ وصُوَر وصلَّى فيه، وخَرَجَ فإذا قريشٌ قد اجتمعتْ ينتظرونَ ما يفعلُ بهم؟. فقال لهم:

- يا معشرَ قريش، ما ترونَ أنّي فاعلٌ بكُمْ.

فقالُوا:

- خيرًا؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم.

فقالَ ﷺ وهوَ يبكي:

- اذهبُوا فأنتُمْ الطلَقَاءُ، أقولُ لكُم ما قالَه أخي يوسُفُ لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

(١) الرحيق المختوم: ٤٥٥.

الناسُ يدخلونَ في دين الله أفواجًا

كانتْ غزوةُ فتح مكةَ معركةً فاصلةً قَضَتْ علَى الوثنية قضاء باتًّا، عرَفَت العربُ لأجلها الحقَّ من الباطل، وزالتْ عنهُم الشبهاتُ فتسارعُوا إلى اعتناق الإسلام.

قالَ عمرُو بن سَلَمَةَ : كنَّا بماء ممرّ الناس، وكان يمر بنا الرُّكبانُ فنسألُهم: ما للناس؟ ما هذَا الرجلُ؟ (أي النبي ﷺ) .

فيقولونَ : يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه وأوحَى إليه.

وكانُوا يقولُونَ : اتركُوه وقومَه، فإنَّه إنْ ظهرَ عليهم فهو نبيٌّ صادقٌ.

فلمَّا كانتْ وَقعةُ الفتح بادرَ كلُّ قوم بإسلامهم[1].

ولقدْ كانتْ سنةُ تسع منَ الهجرة النبوية تسمَّى بسنة

(١) صحيح البخاري ٢ / ٦١٥ ، الرحيق المختوم ٤٩٩ بتصرف .

الوفود، حيثُ أقبلتْ علَى رسول الله ﷺ وفودُ العرب من كلّ ناحية.

وقويَت الدولةُ الإسلاميةُ، وعَرَفَ العربُ جميعًا أنَّه لا طاقةَ لهُم بحرب رسول الله ﷺ، فدخلُوا في دين الله أفواجًا، كمَا قالَ الحقُّ سبحانَه وتعالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣].

ووصلَ عددُ الوفود التي أحصَاها أهلُ المغازي والسّيَر أكثرَ من سبعينَ وفدًا من كلّ أنحاء الجزيرة العربية، جاءُوا يعلنونَ إسلامَهم وانضمَامَهم إلى الدولة الإسلامية القوية.

وهَكَذا انتشرَ الإسلامُ في الجزيرة العربية، وتوحَّدت القبائلُ والشعوبُ تحتَ رايته، وزالَت الجاهليَّةُ وآثارُها.. وأتمَّ اللهُ علَى نبيِّه نعمتَه ونصْرَه.

حجَّة الوداع

تمَّتْ أعمالُ الدعوة، وإبلاغُ الرسالة، وبناءُ مجتمع جديد علَى أساس إثبات الألوهيَّة لله، ونفيها عن غيره، وعلَى أساس إثبات رسالة محمد ﷺ، وكأنَّ هناكَ هاتفًا خفيًّا انبعثَ في قلب رسول الله ﷺ يُشعرُه أنَّ مقامَه في الدنيَا قدْ أوشكَ علَى النهاية، حتَّى أنهُ حينَ بعثَ معاذًا إلَى اليمن سنةَ ١٠ هـ قالَ لهُ فيما قال: يا معاذُ، إنكَ عسَى أن لا تلقاني بعد عامي هذَا، ولعلَّك أن تمر بمسجدي هذَا وقبري.. فبكَى معاذٌ لفراق رسول الله ﷺ[1].

أعلنَ رسولُ الله ﷺ في السنة العاشرة للهجرة اعتزامَه الحجَّ، فقدمَ إلى المدينة بَشَرٌ كثير، كلُّهُم يلتمسُ أنْ يأتمَّ برسول الله ﷺ ويعملَ مثلَ عمله.

(١) سيرة ابن هشام ٤ / ٤١٢، والرحيق المختوم ٥١٥.

وخرجَ ﷺ منَ المدينة في نهاية ذي القعدة، وقد رَوَت السيدةُ عائشةُ - رضيَ اللهُ عنها - إحرامَ رسول الله ﷺ في حجة الوداع حيثُ قالتْ:

خرجْنَا معَ رسول الله ﷺ فقالَ: «مَن أرادَ منكُم أن يُهلَّ بحجّ وعُمْرة فَلْيَفْعَلْ، ومَنْ أراد أن يُهلَّ بحج فَلْيُهلَّ، ومَنْ أرادَ أن يُهلَّ بعُمْرة فَلْيُهلَّ، ومَنْ أرادَ أن يُهلَّ بعُمْرة فَلْيُهلّ». فأهلَّ رسولُ الله ﷺ بحَجّ، وأهلَّ به ناسٌ معَه، وأهلَّ ناسٌ بالعمرة والحجّ، وأهلَّ ناسٌ بعمرة.

وكنتُ فيمَن أهلَّ بعُمرة.

ودخلَ رسولُ الله مكةَ من أعلاها من طريق كُداءَ، حتَّى انتهَى إلى باب بني شَيْبةَ، وقالَ عندمَا رأى البيتَ: «اللهمَّ زدْ هذَا البيتَ تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابةً، وزدْ من عظَّمَهُ مِمَّن حجَّه واعتمره تشريفًا وتكريمًا ومهابة وتعظيمًا وبرًّا».

وفي عَرَفَات صلَّى الظهرَ والعصرَ جمعَ تقديم، ووقفَ حتَّى غربت الشمسُ، ثمَّ دَفَعَ بعدَ ذلكَ إلى المُزْدَلِفَة، وهوَ يشيرُ بيده اليُمنَى قائلاً: «أيُّها الناسُ،

السكينةَ. السكينةَ». فصلَّى في المزدلفة المغربَ والعشاءَ جمعَ تأخير، وباتَ تلكَ الليلةَ في المزدلفة، ثمَ دفعَ قبلَ أن تطلُعَ الشمسُ إلى منى، فرمَى جمرةَ العقبة بسبع حَصَيات، يكبّرُ معَ كلّ حَصاة منها، ثمَّ انصرفَ إلى المنحر، فنحرَ ثلاثًا وستينَ بدنةً، ثمَّ أعطَى عليًّا فنحرَ بقيَّةَ المائة، ثمَّ ركبَ رسولُ الله ﷺ فأفاضَ إلى البيت، فصلَّى بمكةَ الظهرَ.

خُطبةُ الوداع

وفي يوم عرفةَ ألقَى خطبتَه الجامعةَ، وهيَ خطبة الوداع التي أشارَ فيهَا إلى بعض تعاليم الإسلام التي تضبطُ علاقات الناس بعضهم ببعض. وكان هذا نصها:

«. . . أيُّها الناسُ، اسمعُوا قَولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقَاكُم بعدَ عامي هذَا بهذَا الموقف أبدًا.

أيُّها الناسُ:

إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكُم حرامٌ إلَى أن تلقَوْا ربَّكُم، كَحُرمة يَومكُم هذَا، وكَحُرمة شهركم هذا، وإنَّكُم ستلقَونَ ربَّكُم، فيسألُكُم عن أعمالكُم، وقدْ بلَّغتُ.

فمَن كانتْ عندَه أمانةٌ فليؤدّها إلى مَن ائْتَمَنَه علَيها، وإنَّ كلَّ ربًا موضوعٌ ولكُم رؤوس أموالكُم، لا تَظلمون ولا تُظلَمون. قضَى اللهُ أنَّه لا ربَا، وإنَّ

ربَا العباس بن عبد المطلب موضوعٌ كلُّه.

وإنَّ كلَّ دم كانَ في الجاهلية موضوعٌ، وإنَّ أولَ دماءكم أضعُ دمُ ابن ربيعةَ بن الحارث بن عبد المطلب، وكانَ مسترضَعًا في بني ليث فقتلتْهُ هذيلٌ، فهو أولُ ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعدُ أيُّها الناسُ :

فإنَّ الشيطانَ قد يئس من أنْ يُعبَد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنَّه إنْ يُطَعْ فيما سوَى ذلك فقد رضيَ به مما تحْقرون من أعمالكم، فاحذروهُ على دينكم.

أيها الناس :

إن النَّسيءَ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذينَ كَفرُوا، يُحلّونه عامًا ويُحرّمونه عامًا ليواطئوا عدَّةَ ما حرَّمَ اللهُ، فيُحِلُّوا ما حرَّمَ اللهُ، ويحرّموا ما أحلَّ اللهُ، وإن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يومَ خَلَقَ اللهُ السموات والأرضَ. وإنَّ عدَّةَ الشهور عندَ الله اثنَا عشرَ شهرًا، منَها أربعةٌ حُرمٌ، ثلاثةٌ متواليةٌ، ورجبٌ فَرْدٌ.

أمَّا بعدُ أيهَا الناسُ :

فإنَّ لكُم علَى نسائكم حقًّا، ولهُنَّ عليكُم حقًّا،

لكُم عليهنَّ أن لا يُوْطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحَدًا تَكرهُونَه، وعليهنَّ أنْ لا يأتينَ بفاحشة مبينة، فإنْ فعلنَ فإنَّ اللهَ قدْ أذنَ لكمْ أن تهجرُوهنَّ في المضاجع وتضربُوهنَّ ضربًا غيرَ مبرّح، فإن انتهَيْنَ فلهنَّ رزْقُهُنَّ وكسوَتُهُنَّ بالمعروف، واستوصُوا بالنساء خيرًا. . فإنهنَّ عندكُم عوان لا يملكْنَ لأنفسهنَّ شيئًا. . وإنكُم إنمَّا أخذتموهنَّ بأمانة الله. . واستحللتُم فُرُوجَهُنَّ بكلمات الله. فاعقلوا أيهَا الناسُ قولي؛ فإني قد بلَّغتُ، وقد تركتُ فيكُم ما إن اعتصمتُم به لَنْ تَضلُّوا بعدي أبدًا. . كتابَ الله وسنةَ نبيّه.

أيُّها الناسُ :

اسمعُوا قولي واعقلوه، تَعْلَمُنَّ أن كلَّ مسلم أخٌ للمسلم، وأنَّ المسلمينَ إخوةٌ. . فلا يحلُّ لامرئ من أخيه إلا مَا أعطاهُ عن طيب نفس منهُ فلا تظلمُنَّ أنفسَكُم.

اللهُمَّ هلْ بلغتُ؟ فقالَ الناسُ : نعمْ.

فقالَ رسولُ الله ﷺ : اللهمَّ اشهَدْ.

الرسول ﷺ يلحق بالرفيق الأعلى

عندمَا أرادَ اللهُ تعالَى أن يتوفى رسولَه - صلواتُ الله وسلامُه عليه- شاءَ اللهُ تعالَى لَهُ أنْ يمرضَ، وكلُّ شيء بإرادة الله، واشتدَّ به المرضُ، وخرجَ يمشي بينَ رجُلين هما الفضلُ بنُ العباس وعليُّ بنُ أبي طالب، حتَّى دخلَ بيتَ السيدة عائشةَ- رضيَ اللهُ عنهَا - فقال: «هَريقُوا عليَّ سبعَ قرَب من آبار شَتَّى، حتَّى أخرجَ إلى الناس فأعهدَ إليهم».

ففعلُوا، وخرجَ رسولُ الله ﷺ حتَّى جلسَ علَى المنبر، وكانَ أولُ مَا تكلَّم به، أنَّه صلَّى علَى أصحاب أحُد، واستغفرَ لهُمْ فأكثرَ الصلاةَ عليهم، ثمَّ قالَ:

- إن عبدًا من عباد الله خيَّره اللهُ بينَ الدنيَا والآخرة، وبينَ مَا عندَهُ فاختار مَا عندَ الله.

ففهمَهَا أبو بكر، وعرَفَ أنه ينعي نفسَه، فبكَى،

وقالَ:

- بلْ نحنُ نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

فقالَ ﷺ:

- «عَلى رسْلكَ يا أبا بكر. انظُروا الأبوابَ النافذةَ في المسجد فسدُّوهَا إلا باب أبي بكر فإنّي لا أعلمُ أحدًا كانَ أفضلَ في الصحبة عندي يدًا منهُ».

وقالَ ﷺ: «مُرُوا أبا بكر فلْيُصَلّ بالناس».

فكانَ أبو بكر يصلّي بهم، حتى جاءَ فجرُ يوم الإثنين الذي شاءَ اللهُ تعالَى فيه أن يلحقَ الرسولُ ﷺ بالرفيق الأعلَى، فخرجَ - عليه الصلاةُ والسلامُ- إلى الناس عندَما كانُوا يصلّون الصبحَ، فرفعَ السَّترَ وفتحَ البابَ، وقامَ علَى باب السيّدَة عائشةَ رضي الله عنها، فكادَ المسلمونَ يُفتنونَ فرحًا برسول الله ﷺ، ظنًّا منهُم أنه قدْ برئَ من مرضه، فأشارَ عليهم أن يثبتُوا وتبسَّمَ سرورًا بهم، وصلَّى معهُم جالسًا على يمين أبي بكر.

ثمَّ وضعَ رسولُ الله ﷺ رأسَه في حجر السيدة عائشةَ.. وثَقُلَ رأسُه، فإذا بصرُه شاخصٌ وهو

يقولُ:

- بل الرفيقُ الأعلَى من الجنة.

فقالتْ السيدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها:

- خُيّرتَ فاخترتَ، والذي بعثَكَ بالحقّ.

وفاضتْ روحُه إلى بارئها - صلواتُ الله وسلامُه عليه - وكان ذلك في يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنةَ ١١ هـ الموافق ٨ من يونيو سنة ٦٣٣م.

ولما تُوُفّيَ رسولُ الله ﷺ قامَ عمرُ بنُ الخطاب - رضيَ اللهُ عنه- فقالَ: إنَّ رجالاً من المنافقينَ يزعمونَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قدْ ماتَ، وإنَّ رسولَ الله ما ماتَ، ولكنَّه ذهبَ إلى ربِّه، كما ذهبَ موسَى بنُ عمرانَ، فقدْ غابَ عن قومه أربعينَ ليلةً، ثمَّ رجعَ إليهم بعدَ أن قيلَ: قد ماتَ. ووالله ليرجعَنَّ رسولُ الله ﷺ كمَا رجعَ موسَى، فليقطعنَّ أيديَ رجال وأرجلَهم زعمُوا أنَّ رسولَ الله ﷺ قد مات. وأقبَل أبو بكر الصديقُ - رضيَ اللهُ عنهُ - فدخلَ علَى رسول الله ﷺ وهو مُسَجّى بثوبه، فكشفَ عن وجهه الشريف، فقبَّلَه وقالَ:

- بأبي أنتَ وأمّي، طبْتَ حيًّا وميتًا يا رسول الله.

ثم سجَّاه، واستقبلَ الناسَ فحمدَ اللهَ وأثنَى عليه، ثم قالَ:

- أيُّها الناسُ مَن كانَ يعبدُ محمدًا فإن محمدًا قد ماتَ، ومَن كانَ يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ.

ثمَّ تلا الآيةَ الكريمةَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فكأنَّ الناسَ لمْ يعلَمُوا أنَّ هذه الآيةَ قد نزلتْ قبلَ ذلكَ. وقالَ عمرُ رضي الله عنه: والله ما هُو إلا أن سمعتُ أبا بكر تَلاها فعُقِرْتُ ما تُقلُّني رجلايَ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض حينَ سمعتُه تلاها.

وعرفتُ أن رسولَ الله قد ماتَ.

فصلواتُ الله وسلامُه عليكَ يا خاتمَ المرسلينَ، ويَا من بعثكَ اللهُ رحمةً للعالمينَ.

تذكر

موجزُ الأحداث من ٧ إلى ١١ هـ

* في شهر المحرم سنةَ ٧ هـ وقعتْ غزوةُ خيبر، وفيهَا خرجَ رسولُ الله ﷺ لفتح خيبر وحصونها، والتي كانتْ مركزَ المؤامرات والدسائس ضدَّ المسلمينَ، وبعدَ معاركَ ضارية استسلمَ يهودُ خيبر، وطلبُوا الصلحَ، فصالحَهم النبيُّ ﷺ علَى أن يخرجُوا بأنفُسهم وذراريهم تاركينَ كلَّ شيء بعدَ ذلكَ للمسلمينَ.

* وفي شهر ربيع الأول سنةَ ٧ هـ خرجَ رسولُ الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع لتأديب الأعراب الذينَ يقومُونَ بقطع الطريق والسلب والنَّهب في نجد.

* وفي الفترة من جمادَى الثانية إلى شوال سنةَ ٧هـ بعثَ رسولُ الله ﷺ عدةَ سرايَا إلى أنْحَاء متفرقة منَ الجزيرة العربية.

* وفي ذي القعدة سنةَ ٧ هـ قامَ رسولُ الله ﷺ ومعَه المسلمونَ بأداء عمرة (القضاء) حسبَ ما نصَّ

عليه صلحُ الحديبية.

* وفي جُمادَى الأولَى سنةَ ٨ هـ وقعتْ أكبرُ حرب دامية خاضَها المسلمونَ في حياة رسول الله ﷺ، وهيَ غزوةُ (مُؤْتة)، حيثُ واجهَ ثلاثةُ آلاف مقاتل منَ المسلمينَ مائتَيْ ألف مقاتل من الروم. وقد انتهَت المعركةُ دونَ حسم، غيرَ أنَّ المسلمينَ قدْ قتلُوا منهُم كثيرًا، ولكنْ دونَ وقوع هزيمة كاملة لهُم، واكتفَى المسلمونَ بذلكَ ورجَعُوا.

* وفي يوم الأربعاء، العاشر من رمضانَ سنةَ ٨هـ سارَ رسولُ الله ﷺ بصحابته وكانَ عددُهم عشرةَ آلاف مقاتل لفتح مكةَ بعدَ أن نقضَتْ قريشٌ عهدَها معَ المسلمينَ.

وقدْ دخلَ رسولُ اللهَ ﷺ مكةَ بالفعل يومَ الأربعاء ١٧ من رمضانَ سنةَ ٨ هـ.

* وفي شهر شوال سنةَ ٨ هـ كانتْ غزوة (حُنين) عندَما خرجتْ قبيلتَا هَوازنَ وثَقيف لحرب المسلمينَ. وفي هذه الغزوة تلقَّى المسلمونَ درسًا قاسيًا تعلَّمُوا منهُ عدمَ الغرور بالعَدد والعُدَّة، فكمْ من فئة قليلة غلبتْ فئة كثيرةً بإذن الله. وقد كانتْ نتيجةُ معركة حنين في صالح

المسلمينَ حيثُ انتصرُوا بعد هزيمة.

* وفي رجب سنةَ ٩ هـ كانتْ غزوةُ (تبوكَ) أو (غزوةُ العُسْرة)؛ لأنَّ المسلمينَ خرجُوا في الحرّ الشديد لملاقاة الروم، وهي أكبرُ قوَّة عسكرية على وجه الأرض آنذاك.. ورجعَ الرسولُ ﷺ والمسلمونَ مظفرينَ منصورينَ.

* ويسمَّى عامُ ٩ هـ بعام الوفود؛ إذْ أقبلت فيه وفودُ القبائل على المدينة تعلنُ إسلامَها بين يَدَيْ رسولُ الله ﷺ..

* وفي ذي الحجَّة سنةَ ١٠ هـ خرجَ رسولُ الله ﷺ في جمع ضخم من المسلمينَ لأداء فريضة الحجّ، وهيَ الحجة التي عرفَتْ بحجة الوداع، وخطبَ فيهَا النبيُّ ﷺ خطبَته المعروفةَ بـ(خطبة الوداع)، وفيها أشهَدَ الناسَ أنه أدَّى الأمانةَ، وبلَّغَ الرسالةَ.

* وفي يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنةَ ١١ هـ لَحَقَ الرسولُ ﷺ بالرفيق الأعلَى.

فصلواتُ الله وسلامُه عليه، ونسألُ اللهَ أن ينفعَ بهذه السيرة التي هيَ أعظمُ سيرة لبشر علَى وجه الأرض.

الفهرس

مقدمة 5

الرسالة العالمية 7

كتب الرسول ﷺ إلى الملوك ودعوتهم إلى الإسلام 12

غزوة خيبر 16

عمرة القضاء 19

غزوة مؤتة 20

فتح مكة 24

الطريق إلى مكة 28

يوم الفتح الأكبر 30

الناس يدخلون في دين الله أفواجًا 32

حجة الوداع 34

خطبة الوداع 37

الرسول ﷺ يلحق بالرفيق الأعلى 40

تذكر : موجز للأحداث من ٧ - ١١ هـ 44